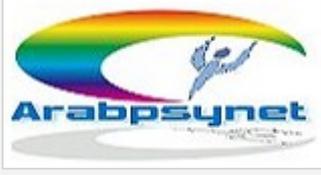


الكتاب الثاني: "جدلية الجنون والإبداع" (الحلقة الثانية)



yehiattrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2019/08/04

السنة الثانية عشرة - العدد: 4355

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

- تحديد مفاهيم:

على الرغم من أن مفهوم كل من الجنون والإبداع يكاد يكون من الشيعوع بحيث يبدو كأنه لا يحتاج إلى تحديد أصلاً، فإنه تازمنا مناقشة مضمون هذه المفاهيم حتى تتحدد معالم ما نشير إليه هنا بدقة مناسبة، لذلك سوف نحاول - ابتداءً - تحديد ما نعنيه بكلٍ من الإبداع والجنون، وذلك بصورة مبدئية، مع الوضع في الاعتبار أن هذا التحديد المبدئي ليس ملزماً حتى نهاية المداخلة، فهو قابل للتعديل من خلال تطور التناول وإعادة النظر طول الوقت.

لم يستقر الأطباء المختصون أنفسهم على وصف الجنون أو تحديده أو تقسيمه إلى فئات متفق عليها اتفاقاً تاماً حتى الآن، ناهيك عن عجزهم عن تحديد أسبابه أو أبعاده أو معانيه أو غاياته، فكيف يكون الحال عند الأديب والناقد، فضلاً عن المثقف العام، لاسيما أن لفظ "الجنون" يستعمل في هذه المجالات استعمالاً متواتراً؟ إن المراجع لاستعمال الأطباء المختصين لفظ الجنون، سوف يكتشف أنهم يستعملون - الآن خاصة - ألفاظاً بديلة، كما سوف يتبين أنهم لم يبقوا لا على مضمون اللفظ ولا على مضمون ما اقترحوا من مترادفات لفظ الجنون. في الإنجليزية. مثلاً: نجد أن لفظ Madness لم يعد مستعملاً في اللغة العلمية الطبية، بعد أن أحلوا محله ألفاظ مثل الذهان Psychosis، والخرف Dementia وما شابه. والترجمة إلى العربية - وهي السائدة بين الأطباء العرب للأسف- تسير على نفس النهج الغامض غير الجامع وغير المانع. على الرغم من كل ذلك فما زال الاستعمال (الطبي) الشائع لفظ الجنون يشمل معاني: الاختلاف الشديد، والغربة الشاذة جداً، والاعتراب المتماذي، والانسحاب الشامل من الواقع، والتفجر الخطر، والتناثر، وبقايا المحاولة (التطورية المخففة)، والموت النفسي، والنشور السلوكي الخطر معلى.

أما عند العامة فإننا نجد نوعاً آخر من الخلط والتداخل في استعمال لفظ الجنون في مختلف المجالات. ففي مجال الأخلاق يستعمل لفظ الجنون ليشمل معاني متعددة، مثل: العدوان الفج، والتبذ، والحمق، والجسارة الجسيمة، والقحة، وغيرها. وفي مجال الأدب لانجد لفظ نفسه حظاً أوفر تحديداً. وقد يصل الاختلاف إلى حد التضاد، فتمَّ الجنون/ التجاوز، والجنون/ الحلم، والجنون/ الوله، والجنون/ البله، والجنون/ السبق، وخرق العادة⁽²⁾، والجنون/ الجمال، والجنون/ القفزة، والجنون/ التناقض... إلخ. ولا تسعفنا المعاجم بما يفيد إلا تجذيراً وتاريخاً لأصل اللفظ وتووع وروده في التراث أساساً، دون مراجعة مضمونه الحركي الحالى.

يكاد يسرى على لفظ الإبداع ما يسرى على لفظ الجنون. ولكن لحسن الحظ أنه مازال أقل تداولاً، ومن

لم يستقر الأطباء المختصون أنفسهم على وصف الجنون أو تحديده أو تقسيمه إلى فئات متفق عليها اتفاقاً تاماً حتى الآن، ناهيك عن عجزهم عن تحديد أسبابه أو أبعاده أو معانيه أو غاياته

ما زال الاستعمال (الطبي) الشائع لفظ الجنون يشمل معاني: الاختلاف الشديد، والغربة الشاذة جداً، والاعتراب المتماذي، والانسحاب الشامل من الواقع، والتفجر الخطر، والتناثر، وبقايا المحاولة (التطورية المخففة)، والموت النفسي، والنشور السلوكي الخطر

فى مجال الأخلاق يستعمل لفظ الجنون ليشمل معاني متعددة، مثل: العدوان الفج، والتبذ، والحمق، والجسارة الجسيمة، والقحة، وغيرها

فى مجال الأدب لانجد لفظ نفسه حظاً أوفر تحديداً. وقد يصل الاختلاف إلى حد التضاد، فتمَّ الجنون/ التجاوز، والجنون/ الحلم، والجنون/ الوله، والجنون/ البله، والجنون/ السبق، وخرق العادة⁽²⁾، والجنون/ الجمال، والجنون/ القفزة، والجنون/

التناقض... إلخ

الجنون -هنا- قد يعنى معنيين أساسيين مختلفين، بحيث تختلف علاقة الجنون بالإبداع باختلاف استعمال كل منهما

أولاً: العملية التى يتفكك بها الكيان البشرى، تركيباً وسلوكاً بلا اتجاه واع بداية - يتفكك إلى وحداته الأولية (وما دونها)

ثانياً: الناتج الانهزامى المتهدم، أو الساكن، أو المنسحب، لهذه العملية بعد إخفاقها، على نحو تترتب عليه حالة من التفسخ المستقر، أو الإعاقة البالغة، أو الانسحاب المنغلق، أو كل ذلك

إن هذا الوصف لهذين المستويين إنما ينطبق على جنون الفصام على وجه خاص، حيث عدت أخلج أنواع الجنون الأخرى تنويحاً مرحلية بديلة

سوف يكون هذا النوع - الفصام- خصوصاً فى تناثره الحركى هو المقصود بلفظ الجنون أخلج مراحل الدراسة

أن لمفهوم الإبداع معنيين (أو مستويين) يقابلان مستوي الجنون

المستوى الأول يشير إلى أن: الإبداع هو العملية التى تنتج فيها المفاهيم والكيانات التى كانت ثابتة ساكنة نسبياً، بما فى ذلك التركيب الحيوى للفرد، بحيث تستعيد وحداتها الأولية ومستوياتها الكامنة (وما دونها) المرونة

ثم أكثر تواضعاً (وإن كان فى حقيقته غير ذلك). يحدث الخلط والتداخل مع استعمال الأجدية المرتبطة بـ"الإبداع" عند المثقف العام، كما يحدث عند بعض المختصين سواء بسواء، خصوصاً عندما تُستعمل ألفاظ مثل الأصالة، والتلقائية، والخيال (ناهيك عن ألفاظ الفن، والموهبة). كثيراً ما تستعمل هذه الألفاظ باعتبارها مترادفات للإبداع، علماً بأنه ليس كل جديد إبداعاً، كما أنه ليس كل ما سرى "منظلاً" على غير توقع إبداعاً. وأخيراً فليس كل ما غلبت عليه صور الخيال إبداعاً، فقد يكون بعض هذا أو كله من مقومات الإبداع، أو أدواته، لكنه ليس هو الإبداع، فالإبداع "فعل" أشمل، وأعد، وأخطر، هو "التخليق فالخلق" مما نؤجل تفصيله حالاً.

لكل هذا علينا أن نتفق، بصفة مبدئية على الأقل، على تحديد مناسب لهذين اللفظين كما سنستعملها فى حديثنا عن الجدلية المحتملة فيما بينهما، ثم نرى.

الجنون -هنا- قد يعنى معنيين أساسيين مختلفين، بحيث تختلف علاقة الجنون بالإبداع باختلاف استعمال كل منهما: أولاً: العملية التى يتفكك بها الكيان البشرى، تركيباً وسلوكاً بلا اتجاه واع بداية - يتفكك إلى وحداته الأولية (وما دونها)، إذ تنشط صراحة - وفى وساد الوعى القائم نفسه - بعض مستويات الوجود الكامنة، ومحتوياتها، تظهر منافسةً، ومعارضةً، ومباعدةً للمستوى الغالب ظاهراً فى السلوك اليومي المعتاد.

كما يعنى الجنون ثانياً: الناتج الانهزامى المتهدم، أو الساكن، أو المنسحب، لهذه العملية بعد إخفاقها، على نحو تترتب عليه حالة من التفسخ المستقر، أو الإعاقة البالغة، أو الانسحاب المنغلق، أو كل ذلك.

إن هذا الوصف لهذين المستويين إنما ينطبق على جنون الفصام على وجه خاص، حيث عدت أغلب أنواع الجنون الأخرى تنويحاً مرحلية بديلة (هذا ما ينتمى إليه الكاتب على الأقل). إن أغلب - إن لم يكن كل - الأمراض النفسية وخاصة تنويح الجنون إنما تظهر للحد من تمادى مشروع (عملية) الفصام حتى غايته القصوى، ألا وهى: النكوص الخامد، أو الموت النفسى. على ذلك: فإن كل ما هو دون الفصام - فيما عدا الأمراض العضوية مثل الخرف - هو مرحلة وسطى فى محاولة وقف المسيرة التدهورية الأخطر المتوجهة إلى الموت النفسى.

لكل هذا سوف يكون هذا النوع - الفصام - خصوصاً فى تناثره الحركى هو المقصود بلفظ الجنون أغلب مراحل الدراسة⁽³⁾ مع التنبيه مكرراً، مثلما كان الحال فى الفصل الأول، إلى أن الجنون العضوى التشريحي،⁽⁴⁾ الناتج عن ضمور عضوى (خرف الشيخوخة أو الزهايمر) أو تلف تشريحي (ورم بالدماع مثلاً) أو التهاب أو ما أشبهه، هو مستبعد ابتداءً من هذه الدراسة وبشكل حاسم.

على الجانب الآخر، نرى أن لمفهوم الإبداع معنيين (أو مستويين) يقابلان مستوي الجنون:

المستوى الأول يشير إلى أن: الإبداع هو العملية التى تنتج فيها المفاهيم والكيانات التى كانت ثابتة ساكنة نسبياً، بما فى ذلك التركيب الحيوى للفرد، بحيث تستعيد وحداتها الأولية ومستوياتها الكامنة (وما دونها) المرونة، إذ تكتسب الشحنة من جديد بما يمكنها من حركية التوجه إلى التأليف الواعد بخلق كل أكبر، مختلف نوعياً ومجاوز دائماً، وتحمل هذه العملية من الإيجابيات الواعدة ما يكفى.

فى حين يشير المستوى الثانى إلى: "الإبداع هو ذلك الناتج الولاى لهذه العملية بعد نجاحها، ذلك الناتج الذى يتمثل أساساً فى تطور ذاتى، وليس فقط فى ظهور شكل رمزى، أو وجود نوعى، يعن ولادة تنظيم أرقى، يحمل قدرة الاستمرار بدرجة من الاستقرار المرحليين، حتى تأتى اندفاعاً جديدة، تُعد بنقلة نوعية جديدة، وهكذا.

موضوع هذه الدراسة يتزايد تعلقه بالمعنيين الأول لكل من مفهومي الجنون والإبداع، أى أننا سنهتم فى معظم الوقت بالجنون "كعملية" وليس كناتج تدهورى، وبالإبداع كعملية قبل أن تكون إنجازاً تشكيمياً

جديدا متميزا، وذلك فيما يتعلق بالعلاقة الجدلية، إذ هي حركية بالضرورة، بما يشمل ما هو تفكك، وتحريك، وتوجّه، وتنشيط، وتجاوز، وتوليف، وكل ذلك حالة كونه يجرى فى اتجاه ضام ظفرى) إبداع (، معرض للفشل بالضرورة) جنون).

الوحدات الأولية:

الوحدات الأولية (مادة الإبداع/ شظايا الجنون) هى الأبداعية الأساسية التى ينبغى أن نتقنها ونحن نحاول تكوين جملة مفيدة فى مسألة الجنون والإبداع، وخاصة بما هما عمليتان تتحرك كل منهما فى تشكيل متنوع، ثم قد يتحركان معا فى جدل محتمل، وسوف يكون مدخلنا إلى هذه الوحدات الأولية من خلال محاولة التعرف على الجانب الآخر لما هو معرفة بشرية، متجنين ما أمكن استعمال لغة التحليل النفسى الكلاسى (الفرويدى) ، حيث أن مدخلنا إلى هذه الدراسة هو مدخل "معرفى (غائى نسبيا)، يهتم أساسا بمستويات المعرفة البشرية المختلفة وأشكالها. كذلك علينا أن نتذكر ابتداء أن الشائع الأعم فى دراسات التفكير والذاكرة وما إليهما هو دراسة المستوى المفاهيمى (5) المنطقى العادى دون غيره، وهذا مسخر أساسا لخدمة نوع الوجود الكمى السائد، وهو الوجود المغترب الذى أشرنا إليه منذ قليل. وبما أن كلا من الإبداع والجنون هو محاولة لنقض هذا النوع من الوجود، أملا فى استعادة توازن ما، كان لزاما علينا أن ننظر فى الوسائل والمستويات المعرفية الأخرى، الغالبة فى حركية الإبداع مخترقا الجنون. ومن هنا نعود فنقول بصفة مبدئية:

إن الإبداع - مخترقا الجنون - هو عملية (معرفية/وجدانية) فائقة، إذ هو كشف لمكنون، وبسط لكامن، وتخليق لتكريب، وتوليف لبنية، من خلال تنشيط مستويات وعى متعددة وتفاعلها معا، ولا يكون الإبداع إبداعا إذا كانت أدواته بداية ونهاية هى المستوى الظاهر من الوعى الغالب (المعرفة المصقولة)، إنما يكون كذلك بالتكامل مع مستويات المعرفة (الوعى) الأخرى.

فما هى المستويات المعرفية الأخرى التى طال إهمالها حتى بدا وكأنه من المستطاع الاستغناء عنها، أو أنه من الأفضل العمل على كبتها؟

يطلق على تلك المعرفة الأخرى أسماء عدة مثل: المعرفة البدائية، أو غير الناضجة، أو المُغفلة، أو القديمة، أو اللامتيزة، أو العيانية، أو الأسطورية، إلى غير ذلك. كما يسميها فرويد العمليات الأولية وهى التى تعد مميزة للأحلام، وغالبة فى الفصام، وموجودة فى المجتمعات البدائية، وفى الطفولة المبكرة. وقد أشار فرويد كذلك إلى أهميتها فى عمليات الإبداع، لكنه لم يغال فى إمكانية قيامها مستقلة بعملية الإبداع حتى تمامها، كما فعل بعض تابعيه. وقد انتبه أغلب الباحثين إلى معارضة ذلك الاتجاه الذى يعلى من قيمة اللاشعور فى عملية الإبداع، على أساس أن العملية الإبداعية هى الولاى الأعلى لكل من العمليات الأولية، والعمليات الثانوية. وقد اقترح سيلفانو أريتى اسما لهذا الولاى الأعلى الذى يشمل العمليتين معا، أطلق عليه اسم العمليات الثالثية⁽⁶⁾ ، مؤكدا، مع غيره، أن الإبداع لا بد أن يتصف بالإحاطة، والتكيف، واحتواء الواقع، والحوار معه، جنبا إلى جنب مع الأصالة والمرونة والطلاقة حتى يتحقق فى درجة فائقة من التكامل.

الجدلية التى نتاجها الإبداع، هى جدلية بين ما هو بدائى (كلى، أولى، مدغم...) وما هو منطقى (تسلسلى، مفاهيمى، ثانوى...) فهل ثمّ مستوى جدلى آخر بين ناتج هذه الجدلية فيما هو إبداع فى أى مرحلة من المراحل، وناتج تحلّل نكوصى مقابل (على الرغم من غائيتها) وهو الجنون ؟

يجدر بنا أن نؤجل الإجابة عن هذا السؤال إلى مرحلة لاحقة من الدراسة، ولننقدم خطوة أبعد فى هذا المستوى الأول، لنتدارسه من منطلق معرفى مشتمل (أى يشمل الوعى والوجدان أيضا)، ذلك المستوى المعرفى الأولى الأساسى اللازم للمشاركة - المباشرة أو غير المباشرة - فى مسار العملية الإبداعية فى كل مراحلها.

سوف نستند فى هذه الفقرة أساسا (وليس نهائيا) إلى فكر (سيلفانو أريتى)، لما له من باع فى دراسة

يشير المستوى الثانى إلى: "الإبداع هو ذلك الناتج الولاى لهذه العملية بعد نجاحها، ذلك الناتج الذى يتمثل أساسا فى تطور ذاتى، وليس فقط فى ظهور شكل رمزى، أو وجود نوعى، يعلن ولادة تنظيم أرقى

الوحدات الأولية (مادة الإبداع/ شظايا الجنون) هى الأبداعية الأساسية التى ينبغى أن نتقنها ونحن نحاول تكوين جملة مفيدة فى مسألة الجنون والإبداع

أن مدخلنا إلى هذه الدراسة هو مدخل "معرفى (غائى نسبيا)، يهتم أساسا بمستويات المعرفة البشرية المختلفة وأشكالها

أن الشائع الأعم فى دراسات التفكير والذاكرة وما إليهما هو دراسة المستوى المفاهيمى (5) المنطقى العادى دون غيره،

أن الشائع الأعم فى دراسات التفكير والذاكرة وما إليهما هو دراسة المستوى المفاهيمى (5) المنطقى العادى دون غيره،

إن الإبداع - مخترقا الجنون - هو عملية (معرفية/وجدانية) فائقة، إذ هو كشف لمكنون، وبسط لكامن، وتخليق لتكريب، وتوليف لبنية، من خلال تنشيط مستويات وعى متعددة وتفاعلها معا

لا يكون الإبداع إبداعا إذا كانت أدواته بداية ونهاية هى المستوى الظاهر من الوعى الغالب (المعرفة المصقولة)، إنما يكون كذلك

بالتكامل مع مستويات المعرفة (الوعي) الأخرى

الجدلية التي نتاجها الإبداع، هي جدلية بين ما هو بدائي (كلى، أولى، مدغم...) وما هو منطقي (تسلسلي، مفاهيمي، ثانوي...)

يقدم أريتي رؤيته لعملية الإبداع بوصفها تعبيراً ولاهياً فائقاً عن تشكيلات معرفية مضفورة من أكثر من مصدر ومستوى للمعرفة

الصورة تتحرك في الحلم، و هي "تقول" بما هي، وليس بالضرورة بترجمتها إلى رمز كلامي، فتؤدي وظيفتها التنظيمية في كل حال

الحلم لا يستوعب كل ما يحركه الإيقاع الحيوي من صور، فيحتاج الأمر إلى مسارات بديلة

الصورة إما أن تضغط فتظهر في الوساد الشعوري العادي (وعى اليقظة) بلا احتواء ولا تطوير، فهي عندئذ الهلوسة (المرضية في العادة). وإما أن تحفز المستويات الأرقى لاحتوائها، فهي عندئذ جزء من أبجدية الإبداع

إن الجانب الأهم في العملية الإبداعية هو ضغط المعرفة الأخرى، التي أسماها أريتي: المعرفة المشته (غير المتبلورة)، التي بفضل أن نسميها المعرفة "الضبابية" (أو المدغمة)

أن المكد هو تنظيم كلى أولى لخبرة سابقة من المدركات، ومن آثار الذاكرة، وصور الأشياء، والحركات، فهو خبرة كلية لا

كل من الفصام (7) والنمو النفسي والتطور (8)، ثم بما أسهم به فيما هو تنظير لطبيعة الإبداع :

يقدم أريتي رؤيته لعملية الإبداع بوصفها تعبيراً ولاهياً فائقاً عن تشكيلات معرفية مضفورة من أكثر من مصدر ومستوى للمعرفة. وهو في ذلك يؤكد أهمية المرحلة الأولية للمعرفة، وبخاصة مرحلة "الصورة Image"، ومرحلة "الإنديسبست" (9) "فهو يرى أن إطلاق سراح "الصورة" لكي تتحرك في حرية، هو من أولى الخطوات الدالة على إحياء مستوى المعرفة الأقدم، كما يرى أن هذا الإنديسبست = المكد هو أساس المرحلة المعرفية التالية لمرحلة الصورة، الذي يرى "أريتي" أنه بنشاطه الضاغط هو المحور الجوهرى لعملية الإبداع.

الصورة تتحرك في الحلم، و هي "تقول" بما هي، وليس بالضرورة بترجمتها إلى رمز كلامي، فتؤدي وظيفتها التنظيمية في كل حال، لكن الحلم لا يستوعب كل ما يحركه الإيقاع الحيوي من صور، فيحتاج الأمر إلى مسارات بديلة: فالصورة إما أن تضغط فتظهر في الوساد الشعوري العادي (وعى اليقظة) بلا احتواء ولا تطوير، فهي عندئذ الهلوسة (المرضية في العادة). وإما أن تحفز المستويات الأرقى لاحتوائها، فهي عندئذ جزء من أبجدية الإبداع.

حين تكون هذه الحركة في متناول مستوى من الوعي يقدر على استعمال مستويات مختلفة من النشاط العقلي، إذ يستطيع أن ينتقل من خلال ذلك جينةً وذهاباً من أعلى المستويات إلى أدناها، يتحقق الإبداع. أريتي لا يبالغ في قيمة "مجرد حضور" الصورة في إتمام العملية الإبداعية، ذلك أن النقاط تحريك الصورة، وما قبلها وبعدها، في مرونة قادرة على إعادة التشكيل، وأيضاً توظيف القدرة على الحوار والتوليف مع مثبرات ومعلومات الواقع الخارجى، هذا وذلك هما اللذان يتحقق من خلالهما الإبداع.

إن الجانب الأهم في العملية الإبداعية هو ضغط المعرفة الأخرى، التي أسماها أريتي: المعرفة الهشة (Amorphous Cognition غير المتبلورة)، التي بفضل أن نسميها المعرفة "الضبابية" (أو المدغمة). هي تضغط لكي تظهر، أو تضغط على أمل أن تظهر، من خلال -ومع- غيرها من المعارف الأحدث والأقرب على الحركة الخارجية والتعبير والتواصل. إنه ليس من طبيعة المعرفة الضبابية المدغمة هذه أن تظهر بنفسها، فهي نوع من المعرفة، يتمثل في الداخل بلا تفسير مباشر له من الخارج، في شكل فكرة، أو صورة، أو لفظ، أو مفهوم. وهي تتكون أساساً مما أسميناه "المكد"، حيث أن المكد هو تنظيم كلى أولى لخبرة سابقة من المدركات، ومن آثار الذاكرة، وصور الأشياء، والحركات، فهو خبرة كلية لا يمكن تقسيمها إلى أجزاء، أو إحلالها في ألفاظ (كما هي)، فهو (المكد) كلٌ مدغم من: فكر، وتهيؤ، وانفعال، وحفز، وفعل، ومن ثم فهو في شوق دائم إلى أن يظهر بصورة أو بأخرى، قد يكون المكد هو لغة الحلم غير المحكى (الأقرب إلى الحلم بالقوة، وبعض الحلم الحركى - الكتاب الأول)، يصدق ذلك خاصة في حالة الأحلام الشمولية المصورة العصبية على الاسترجاع، وقد يجد المكد طريقة إلى التشكل في حلم محكى على مختلف المستويات (أنظر الكتاب الأول)، وقد يعجز الحلم عن احتواء حركية المكد، فيصبح الأخير طاقة ضاغطة في محاولة أن تجد طريقها إلى التعبير، مع احتمال أن تسلك السبيل إلى ما هو إبداع إذا ما تيسرت وسائله وأتيحت فرصه.

يعترف أريتي أنه في مرحلة معلوماتنا الحالية لا يمكن الحصول على دليل يمكن عن طريقه إثبات وجود ما هو "مكد". لذلك فهو يقر بأن هذا المفهوم سوف يظل إلى أمد طويل بعيداً عن مجال التناول العلمى بالمنهج التقليدي، ولكن أريتي يشير إلى دلالات غير مباشرة على وجود هذا المستوى المكدي من المعرفة فيما نصفه أحيانا بألفاظ مثل "الجو العام"، أو "التوجه"، أو "الخبرة الكلية"، أو ما أطلق عليه فرويد تعبير "الشعور المحيطي". (10) "ويذهب أريتي إلى أن جزءاً أكبر من حياتنا المفاهيمية إنما يلتحم بشكل أو بآخر بمقابلاته المكدية، أو يتحول إلى أشكال مكدية غائبة. ثم يستطرد إلى أنه ينبغي أن ندرج من ذلك لنقول: إن الشيء نفسه قد يصح بالنسبة لكثير من النشاط المعرفى الجاهز لكى "ينبسط" (11) "فيما هو إبداع.

يمكن تقسيمها إلى أجزاء، أو إخلالها في الفاظ (كما هي)

هو (المكد) كلُّ مدغم من: فكر، وتهميؤ، وانفعال، وحفظ، وفعل، ومن ثم فهو هي شوق دائم إلى أن يظهر بصورة أو بأخرى

قد يكون المكد هو لغة الحلم غير المحكى (الأقرب إلى الحلم بالقوة، وبعض الحلم البركي

قد يجد المكد طريقة إلى التشكل في حلم محكى على مختلفه المستويات

قد يعجز الحلم عن احتواء حركية المكد، فيصبح الأثير طاقة ضائعة في محاولة أن تجد طريقها إلى التعبير، مع احتمال أن تسلك السبيل إلى ما هو إبداع إذا ما تيسرت وسائله وأتاحت فرسه.

أن تنشيط "مستوى الصورة" قد يطلقها في لغة الحلم أو يجعلها تقتحم وعى اليقظة في نوبة جنون، أو هو قد يسمح لها أن تحرك وعى الإبداع في توليفه جديد

أصر قصداً أن أنسب للجمع فأقول "مفاهيمي" بدلا من مفهومي، متى ساقني السياق إلى ذلك

تستخدم المفاهيم الواضحة والراصة كأبداعية مفيدة لسباق عام. وقد أفضل هذه الصيغة على صيغة "مفهمي" التي قد تستعمل بصيغة المفعل أو ماشابه، مما يضيق بما أردته.

كنت قد أطلقت -متريداً - على هذه الوحدة المعرفية

ليس صحيحا أن كثيرا من مظاهر حياتنا المفاهيمية التي ترد إلى المستوى المكدي، أو تتراجع نحوه، إنما تفعل ذلك لمجرد أن تهرب من القلق أو العصاب أو الخطر، فالشخص المبدع يحتاج أيضا إلى أن ينسحب من النظم الثابتة والصحيحة والجامدة، إلى مرحلة سابقة من مراحل المعرفة الضبابية المدغمة، أي إلى هذا الوعاء الكبير المضيف الرحب، الذي يغلب فيه "تعلق الحكم"، وعدم التحديد، وتوحد الزمن مع محتواه، وتوقع حدوث التحورات غير المتوقعة، يفعل ذلك كخطوة نحو اقتحام ضام أعلى وجديداً.

ذكرنا أن تنشيط "مستوى الصورة" قد يطلقها في لغة الحلم أو يجعلها تقتحم وعى اليقظة في نوبة جنون، أو هو قد يسمح لها أن تحرك وعى الإبداع في توليف جديد، كذلك فإن تنشيط المستوى المكدي قد يظهر في الحلم، أو يكون أساسا للإبداع (انظر بعد) أو قد يبدو عرضا مرضيا في الجنون يظهر بعض تجلياته فيما يسمى التفكير العُهنى⁽¹²⁾ أو فيما يعرف أحيانا بفرط التضمين (13) .

هوامش

- [1] هذا هو الكتاب الثاني باسم "جدلية الجنون والإبداع" نشرت صورته الأولى في مجلة فصول- المجلد السادس - العدد الرابع 1986 ص (30 - 58) وقد تم تحديثها دون مساس بجوهرها، وهو الفصل الثاني من كتاب "حركية الوجود وتجليات الإبداع" الصادر من المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة، والكتاب يوجد في طبعته الأولى 2007 بمكتبة الأنجلو المصرية، وفي منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفي مؤسسة الرخاوى للتدريب والبحوث: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا حاليا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط www.rakhawy.net ، وهذه هي الطبعة الثانية بعد أن قُسم إلى ثلاث كتب أضيف إليها ما جد للكاتب بين الطبعتين، وهذا الكتاب هو الثاني.

- [2] خالدة سعيد "حركية الإبداع". ص 62-92 - دار العودة بيروت: والأمثلة تفوق الحصر، سواء في استعمال لفظ الجنون في نص العمل الأدبي- الروائي بصفة خاصة، أو في وصف الخبرة الذاتية للمبدع (كمثال: وصف شعر أنسي الحاج: "بالجنون ينتصر التمرد"، أو في النقد "بهذا المعنى يكون الجنون هو: السبق، ونقض المصطلحات وخرق العادة، وتجاوز دائرة المعقول")

- [3] ذكرت في الكتاب الأول: "...إن الجنون الدوري هو أساس عندي لكل الأنواع الأخرى". ثم أعود فأذكر هنا أني أرى أن جنون الفصام هو الأصل، وأن أغلب أنواع الجنون الأخرى هي تنويعات مرحلية... إلخ". ولا بد من إيضاح لما يبدو تناقضا بين هذا الزعم وذاك، في حين أنه ليس كذلك: فالجنون الدوري هو أساس كل الأنواع الأخرى من منظور "الإيقاع الحيوي" الذي كان موضوع الدراسة الأولى، وفي نفس الوقت فإن الفصام هو الأصل، من منظور غائية التدهور وحركية التناثر (التحليلية) في اتجاه الانقراض. وقد سبق أن وضعت الفصام في مراحل فشله المتمادى في هذه المرتبة القصوى المتدنية تدهوريا، في مقابلته للمستوى الخلقى للصحة النفسية- انظر: يحيى الرخاوى: مستويات الصحة النفسية على طريق التطور الفردي، في: حيرة طبيب نفسي، (1972) دار الغد للثقافة والنشر، القاهرة.

- [4] تحديد هذا النوع بصفة "تشريحي" سواء التشريح الجسمي أو التشريح الدقيق (الهستولوجيا) هو لبيان أن كلمة عضوى وحدها لا تكفى للاستبعاد، لأن كل أنواع الجنون التي يقال إنها وظيفية هي عضوية بمعنى التغير الكيميائي والتنظيمي البيولوجي المصاحب. أما استبعاد هذا النوع فلأن له "إمراضية" (كيفية تكون الأعراض The how of symptom formation = Psychopathology) مختلفا جذريا إذ يحدث هذا النوع بلا غائية محددة، اللهم إلا في التعويض بعد الإصابة المبدئية، إن كان ثم تعويض وظيفي محتمل.

- [5] أصر قصداً أن أنسب للجمع فأقول "مفاهيمي" بدلا من مفهومي، متى ساقني السياق إلى ذلك. وأحسب أنه قد آن الأوان لتجاوز هذا المحذور إذا ما كانت النسبة إلى الجمع تستطيع أن

بمراجعة وظيفة هذا المستوى

المعرفي النشط رجعت أنما

مرحلة إدراك آخر، حتى لو لم

يكن شعوريا أو محسوسا

لا يصح أن يحتكر الشعور

مفهوم الإدراك، فيحتكر ضمنا

حق المعرفة

أن .. هذه المرحلة (مرحلة

القبمدرك) يمر بها (بما هي

حالة) بعض المبدعين فيما

يسمونه مخاض الفكرة.. وقد

بينت أيضا هناك أن "هذه

المرحلة برغم ما بها من بقية

حدس عنيف، هي مرحلة

بدائية، تحمل مخاطر النكوص

والتناثر لو استمرت دون

استيعاب

وجدت أنه على أن أتراجع عن

إنكار صفة الإدراك عن هذه

الوحدة الأولية في العمل

نفسه (ص415) فخطر لي أن

أسميها "المدرك القبلفظي"

بدلا من القبمدرك

رجعت إلى لفظ الأندوسبت

Endocept الذي استعمله

أريتي فلم أجد له أصلا في

المعاجم الإنجليزية

أقر "أريتي" أنه نحتنا

لتأكيد طبيعته الداخلية

"Endo"، دون نهى صفة

الإدراك عن

تضمّن اللفظ معنى خاصا متميزا. وقد أردت هنا أن يكون
لهذه الصيغة بإيقاعها الخاص المتميز ما يضعني-والقارئ- في
موقع يسمح بتخصيصها لما يعنى مرحلة معرفية مصقولة ومسللة،
تستخدم المفاهيم الواضحة والراسخة كأبجدية مفيدة لسياق
عام. وقد أفضل هذه الصيغة على صيغة "مفهومي" التي قد
تستعمل بصيغة المفعول أو ماشابه، مما يضيق بما أردته.

- [6] سيلفانو أريتي: "الإبداعية: الولاة السحري" (ص66)

Silvano Arieti: Tertiary processes (1976),

New York. Creativity: The Magic Synthesis. Basic Books

- [7] سلفانو أريتي:

Silvano Arieti (1974), Interpretation of

Schizophrenia. Basic Books, New York.

- [8] سلفانو أريتي: النفس داخل الذات:

Silvano Arieti (1967), The Intrapsychic Self: Feeling

Cognition and Creativity in Health and Disease. Basic

Books, New York

Endocept - [9] المكد = المدرك الكلى الداخلي.

كنت قد أطلقت-متريدا - على هذه الوحدة المعرفية الأولية

المسماه بالإنجليزية endocept قبل ذلك (دراسة في علم

السيكوباتولوجي 27، 123) لفظ "قبمدرك"، على أساس أنها تمثل

"... مرحلة بدائية قبل الإدراك الشعوري المحدد، يختلط فيها

الانفعال بالإدراك بالحدس..."، ولكني بعد ذلك، وبمراجعة وظيفة

هذا المستوى المعرفي النشط رجعت أنها مرحلة إدراك آخر،

حتى لو لم يكن شعوريا أو محسوسا، إذ لا يصح أن يحتكر الشعور

مفهوم الإدراك، فيحتكر ضمنا حق المعرفة. وقد كان واضحا لدى

منذ البداية- قبل الرجوع إلى "أريتي"- ما لهذا المستوى من

علاقة بالإبداع، حيث حددت في المرجع نفسه، ("دراسة في علم

السيكوباتولوجي" للكاتب 1979) أن "... هذه المرحلة (مرحلة

القبمدرك) يمر بها (بما هي حالة) بعض المبدعين فيما يسمونه

مخاض الفكرة.. وقد بينت أيضا هناك أن "هذه المرحلة برغم

ما بها من بقية حدس عنيف، هي مرحلة بدائية، تحمل مخاطر

النكوص والتناثر لو استمرت دون استيعاب". (نفس المرجع

ص123).

ثم إنى وجدت أنه على أن أتراجع عن إنكار صفة الإدراك عن

هذه الوحدة الأولية في العمل نفسه (ص415) فخطر لي أن أسميها

"المدرك القبلفظي" بدلا من القبمدرك.

كما أنى رجعت إلى لفظ الأندوسبت Endocept الذي استعمله

أريتي فلم أجد له أصلا في المعاجم الإنجليزية. وقد أقر

"أريتي" أنه نحتنا لتأكيد طبيعته الداخلية "Endo"، دون

نهى صفة الإدراك عنه. وحين تبينت أبعاده من حيث أنه "مدرك،

كلى، داخلي" فضلت أن أنحت له بدوري لفظ "مكد" بالعربية.

وكنت بعيدا عن متناول معاجمي، لكنني حين عدت إلى المعاجم

أستشيرها، وجدته لفظا عربيا أصيلا له أصل ومضمون آخر في

سياق آخر، لكنني وجدته لفظا مهجورا تماما، فكنت أعدل عنه،

ثم عدت فقدرت أن هذا الاستعمال العلمي الجديد خلاق بأن يحيى

هذا اللفظ العربي الأصيل من منطلق آخر، لاسيما أن مضامينه

الأصلية قد تشمل مفاهيم مشتركة مع ما نحن بحاجة إلى إيضاحه

هنا، فهي تشمل معانى: الدوام، والغزارة، واستمرار العطاء

(لا ينقطع، شاة غزيرة اللبن، بئر مأكدة)- وإن كانت هذه

المعاني لاتشى مباشرة بكون أن ما هو "مكد"، هو داخلي، إلا

أننى أملت أن يكون مدلول غزارة لبن الشاة إنما يعنى أنها

تحلب إذا ما حلبت، وليس أنها تتدفق تلقائيا. وكذلك

البئر، "إنما تعطى إذا ما استسيقت من غائر مائها"، وإزاء

طمأنينتى لكل هذه الإيحاءات لم أغير اللفظ داعيا إلى بدء

استعماله في هذا المعنى الجديد في هذا السياق الخاص.

[10] - Oceanic Feeling

[11] - To be Unfolded

[12] - Woolly Thinking

[13] - Over inclusion

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2019 1 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعتهما الثامنة عشر وتدخل عامها التاسع عشر من التأسيس

18 عاما من الكدح... 61 عاما من التواصل "

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

شاركونا أعمالنا على صفحاتكم للتواصل الاجتماعي....

معا يصل صوتنا ومعكم نذهب أبعد ...

معا نرقى بانساننا، فترقى اوطاننا، وترقى امتنا

" نحو لياقة نفسانية أفضل لحياة طيبة "

الصفحة العلمية للدكتور جمال التركي

تسجيل الاشتراك

www.facebook.com/turky.PsyFitness

مؤسسة العلوم النفسية العربية

جائزة " قتيبة شلبي " لشبكة العلوم النفسية العربية للعام 2019

تتشرف شبكة العلوم النفسية العربية بإطلاق اسم:

" البروفيسور قتيبة شلبي "

(الطب النفسي، العراق / أمريكا)

على جائزتها للعام 2019 المخصصة للأعمال العلمية في الطب النفسي

تقديرًا لمسيرته العلمية المميزة

واعترافًا لما قدمه من خدمات جليلة للطب النفسي الشرعي على المستوى العالمي

دعوة لتقديم الترشيحات للجائزة

الترشح للجائزة من بداية من 01 جانفي 2019 الى 30 نوفمبر 2019

شروط الترشح

www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2019/APNprize2019.pdf

ارتباطات ذات صلة

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com/arabpsynet.php?p=2>

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على الفيس بوك

<https://www.facebook.com/Arabpsynet-Award-289735004761329/?ref=bookmarks>